الابن الشاطر

يا أحباء، هذا هو الأحد الثاني الذي نبدأ فيه مرحلة الاستعداد للصوم الأربعيني المقدس، وهو المعروف بأحد الابن الشاطر انطلاقا من المقطع الإنجيلي الذي سمعناه والذي يتكلم فيه الرب يسوع عن ذاك الإنسان الذي ترك بيت أبيه وأخذ نصيبه وبدَّد أمواله في حياة عاشها بالخلاعة والزنى، بعد أن عاد إلى نفسه وأدرك الوضعية التي هو عليها قال لذاته: أقوم وأعود إلى بيت أبي.

وهكذا حدث، فعندما عاد إلى بيته رآه أبوه فركض إليه وعانقه وقبّله واستقبله بفرح عظيم وأمر أن يقام فرح عظيم.

نستطيع أن نتعلم الكثير من هذا المقطع الإنجيلي، ولكن دعوني أن ألفت محبتكم إلى أمرين.

الأول أنَّ هذا الابن عندما ترك بيت أبيه وذهب إلى الكورة التي ذهب إليها وبدَّد أمواله هناك، يقول الرب: أنه حدثت مجاعة كبيرة في ذلك البلد، فأخذه العوز ولم يبقَ له شيء يأكله فذهب إلى واحد من أهل ذلك البلد فأرسله إلى حقوله كي يرعى الخنازير. فكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت تأكله الخنازير فلم يعطه أحد.

والذي أريد أن أقف عنده قليلاً هو مسألة الجوع. لقد جاع ذلك الإنسان، فمتى جاع الإنسان أراد أن يأكل لأنه بحاجة لأن يأكل وبالتالي فإنه يطلب أي شيء، كما حدث مع هذا الإنسان الذي طلب أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي هو مأكل الخنازير.

عندما يجوع الإنسان بالجسد فإنّه يطلب أي شيء. فإن لم يتمكن من أن يحصل على خبز من قمح فقد يسعى ليحصل ويأكل بفرح حتى ذلك الرغيف المصنوع من الشعير. إنّه يحاول أن يتلقف أي شيء ويضعه في فمه ويُشبع بطنه لأنه جائع.

وهذا ما يحصل أيضاً من الناحية الروحية. إنّ الإنسان الذي يطلب الله ويجوع إلى محبة الله، الإنسان الذي يبحث عن الله ويفتش عن الله ويطلب أن يتعرف على الله أكثر، لأن الله هو الذي يسّكن جوعه الروحي، الله وحده هو الذي يملأ روحه ونفسه وكيانه، إنّ الإنسان الذي يفعل ذلك ينتعش بالروح ويمتلأ آنذاك. وهذا ما يقوله الرب في الإنجيل(من يُقبل إليّ لن يجوع أبداً)

المجد لله الذي خلقنا على صورته ومثاله. الإنسان يأكل لكي يسند جسده، والرب أعطانا هذه الخيرات كي نتعاطاها بالشكل اللائق والحسن ومن أجل أن يتقوى الإنسان وينمو بالقامة والنعمة أمام الله وأمام الناس. ولهذا فإن الإنسان يطلب ما هو روحي ويبحث عن الله أيضاً كما يبحث عن قُوْتِهِ الجسدي.

يقول الرب أيضاً في هذا المثل إنَّ هذا الإنسان عندما سافر إلى ذلك البلد البعيد فقد بدّد كلّ أمواله هناك، والإنسان يبدّد غناه المادي كما يبدّد غناه الروحي أيضاً كما ذكرت. لقد خلقنا الربّ على صورته وعلى مثاله وأعطانا ملكات روحية من إرادة وفكر وحكمة وقلب وعقل وحرية وسيادة، وأعطانا ما أعطانا على صورته الإلهية. يدرك الإنسان هذه الملكات الروحية التي في داخله إلا أنّه وعندما يتشتت ذهنه ويبتعد عن الله فإنه يبدّد هذه القوى الروحية كما يبدّد أمواله وكما يبدّد غناه المادي. نعم، يجب أن يحافظ الإنسان على هذه القوى ويجمع هذه الملكات الروحية ويضمها بعضها إلى بعض كما خلقها الله وخلق الإنسان، وأن يسخّر كلّ هذه الملكات للنعمة الإلهية لتفعل فيه وتقويّه.

لو رجع الواحد منا إلى نفسه لأدرك كم من النعم قد أعطانا الله وكم من القوى والملكات الروحية غير الموجودة عند الكائنات الأخرى

يقول الرب في الإنجيل: إنّ الله قد أكرم الإنسان أكثر من الملائكة، فنحن، على سبيل المثال ولا الحصر، عندما نقرّب الكأس المقدسة سنقف في هذا المكان من الباب الملوكي ونقول(بخوف الله وإيمان ومحبة تقدموا)

وفي الكأس المقدسة هناك جسد ودم الرب الكريمان، وعندما نتناول منه نشترك في جسد الرب ودمه الكريمين، فأية كرامة مثل هذه الكرامة؟.

إذاً، لقد أكرم الله الإنسان وأعطاه من مواهبه، وهذه المواهب على سبيل المثال: ذهن الإنسان، كرامة الإنسان، قلب الإنسان، قوام الإنسان، رغبة الإنسان، شهوة الإنسان. إنّ كل هذه القوى الروحية كانت تعمل بحسب الوصية الإلهية، ولكن بعد الخطيئة والسقوط، وبعد أن سقط الإنسان وابتعد عن مصدر الحياة، فإنّه قد الإنسان بعثر هذه القوى. لقد تبعثرت هذه القوى بدل أن تكون في قلب الإنسان تعمل بانسجام وتسجد أمام سيدها، وأن ينمي هذا الإنسان الملكات التي في داخله. وإن لم ينتبه فإنه سيبدد كل هذه الأمور في داخله ويصبح في تشتت.

ولهذا يحدثنا آباؤنا القديسون دوماً عن حفظ الذهن وحفظ الفكر. لو عاد كل واحد منا إلى نفسه لوجد أن فكره يتشتت دوماً ويتوه في أمور كثيرة حتى عندما يكون في الكنيسة. قد يكون الواحد منا في الكنيسة يصلي، ولكن في لحظة ما يطير فكره إلى الخارج، إلى أمر ما يشغله(بيته، عمله، أرضه) ومن ثم يرجع ويعود.

لذلك يسعى الإنسان دائماً في حياته لأن يجمع ويضبط هذه القوى والملكات التي في داخله و يعيدها إلى عملها الصحيح، إنه يسعى لأن يجمعها في ذاته وان يسّخر هذا الكيان أمام محبة الله كي ينمو، كما ذكرت، أمام الله والناس.

اختارت الكنيسة هذا المقطع الإنجيلي وحدّدت هذا الأحد ليكون مخصصاً لهذا المثل الذي أعطانا إياه الرب يسوع قبل البدء بالصوم، وذلك لتذكرنا الكنيسة بأنّ ما نقوم به من أصوام وتلاوات للكتاب المقدس وأعمال خير وإحسان إنّما الغاية منه في النهاية أن يتجدد الإنسان وأن يَلْقى نور الرب ويعود إلى ذاته فيجمع هذه القوى التي تتبعثر بالخطيئة ويجعلها تعمل بانسجام، بعضها مع البعض، لكي ينمو ويتجدد. إنّ الواحد منّا يجاهد لكي يجعل نعمة المعمودية والميرون اللذين أخذناهما في يوم المعمودية فاعلة فيه، كما وأنّ لديه الحريّة التامّة لئلا يجعلها فاعلة فيه.
إذاً، نحن مدعوّين اليوم لأن نتذكر العودة إلى أنفسنا وجمع قوانا ووضعها أمام الرب، وأن نسجد أمام الرب لكي يعطينا النعمة والقوة ولكي يكون صومنا وصلاتنا وحياتنا مباركة بنعمته.
هو المبارك والممجد إلى الأبد.....آمين